

الفقر والقدر

إن الفقر والبؤس الذي يعيشه الكثيرون من الناس ليس صدفة، أو ضربة حظ، أو قدرا مكتوبا لا يملك الإنسان أن يفعل حياله شيئا. الفقر يتأتى نتيجة لمواقف فردية، وثقافات شعبية، وسياسات جماعية، ونظم تعليم وتربية مجتمعية. وهذا يجعل علاج الفقر والحاجة والمرضى وغيرها من آفات مجتمعية مسؤولة جماعية، لا بد وأن تبدأ وتنتهي بتغيير السياسات المتبعة، وتبديل الدارج من المواقف، وتطوير السائد من العادات والتقاليد، ورفع مستوى المؤسسات التعليمية، مدرسين، ومعدات، ومناهج، وتطوير أساليب التربية والتدريس.

وخلافا لما يعتقد البعض من الأفراد، وما يروج له بعض المتزمطين من أتباع الديانات المختلفة، لا يوجد للبؤس الجماعي والهزائم الشعبية علاقة بالقدر أو بغضب إلهي.. إن الله لا يغضب من فرد أو من جماعة صغيرة لدرجة تدفعه إلى الانتقام من شعوب أو أمم بأكملها، خاصة وأنه من المفروض أن يحاسب الله كل إنسان على ما فعل وما فشل أن يفعل في الآخرة.. يوم الحساب والعقاب والثواب. إن البؤس والفقر والفشل والهزائم والتخلف هي ظواهر لحالات مجتمعية مرضية تنصف بسوء الإدارة والحكم، والتبذير، والإيمان بالخرافات والسحر والشعوذة، وإتباع سياسات اقتصادية واجتماعية جاهلة أو قديمة تجاوزها الزمن، واقتراف أعمال تهدر المال العام والخاص، واتخاذ مواقف رسمية وشعبية تضطهد الفكر والمفكرين، وتحبس الحرية خلف قضبان حديدية، وتنتقص قيمة العلم والعلماء، وتعمل بوعي ودون وعي على تهجير ما لديها من ثروات بشرية مجتمعية وعقول مبدعة وخلاقة.

إن الهروب من مواجهة الواقع، وتجنب الاعتراف بالمسؤولية الفردية والمجتمعية عن حالات الفقر والبؤس وفقدان الثقة بالذات قاد العديد من الشعوب إلى إلقاء المسؤولية على القدر والغير، وكأن الله يفرق بين الناس والشعوب، وأنه أراد لتلك الشعوب أن تعيش حياتها في فقر وبؤس، بينما أراد لغيرها أن تعيش في بوحه ورخاء. وبسبب هذه القناعة وهذا الموقف فإن البعض اتجه إلى الدعاء إلى الله كي ينقذهم مما هم فيه فقر وبؤس وظلم، وذلك كمن يتسول في الشوارع طلبا للمساعدة من المارة. إن التغلب على حالات التخلف الجماعية لا يمكن أن يتأتى إلا من خلال الاعتراف بالوضع المتخلف أولا، والاعتراف بالمسؤولية الجماعية ثانيا، وإعادة النظر في طرق التفكير وأساليب العمل والسياسات المتبعة ثالثا، واستبدال ما كان بحاجة لاستبدال من حكام ونظم وتقاليد، وتطوير طرق التفكير كي تستوعب منطق العلم وتتعاش مع الزمن، وتغدو قادرة على مسايرة مسيرة التطور الحضارية.

د. محمد ربيع

أكتوبر 2007

www.yazour.com